ذكر الله

٣١
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية

ذكر الله

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٢ هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآل بيته وبعد

من الله تعالى علينا نحن المسلمين بإرسال نبياً كريماً إلينا من أنفسنا وهي نعمة لا تقدر بقدر ومنحة عظيمة جليلة ليخرجنا من الظلمات إلى النور، ويتفضل علينا بهدايتنا إلى مستقيم الصراط، و سوقنا إلى أقصى درجات الكمال الذي فيه ينبع ديننا الكامل، و لنوحد الله في العبادة، ويقوم الأخلاق الدينية والاجتماعية التي تتفرع على تلك الدعوة إلى ذكره وشكره، وليذكرنا بنعمه جل وعلا ويذكرنا بعبوديته وطاعته، و يزيدنا على شكرنا لنعمته وعدم كفراننا لآلائه قال تعالى: (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)(١)، ومن المؤكد أن ذكر الله ليس بتحريك اللسان فقط، وإن كان اللسان ترجمان القلب،إنما الهدف الأساسي هو التوجه بكل الوجود إلى الله سبحانه توجّها يصون الإنسان من الذنب ويدعوه إلى الطاعة فيجعله متعلقا بكل كيانه بربه، فقد وردت أحاديث كثيرة عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته عليهم السلام في الذكر وفضائله وأنواعه وأوقاته وأماكنه وأدواته، وفي بحثنا هذا نسلط الضوء ما أمكننا على أدوات الذكر.

(١) إبراهيم - الآية - ٧

أدوات الذكر

جاء في كتاب الخصال عن أبي محمد عبد الله بن حامد (وهو شيخ الشيخ الصدوق) رفعه إلى بعض الصالحين عليهم السلام:

الذكر مقسوم على سبعة أعضاء، اللسان والروح والنفس والعقل والمعرفة والسر والقلب . وكل واحد منها يحتاج إلى الاستقامة، فأما استقامة اللسان فصدق الإقرار، واستقامة الروح صدق الاستغفار، واستقامة القلب صدق الاعتذار، واستقامة العقل صدق الاعتبار، واستقامة المعرفة صدق الافتخار، واستقامة السر السرور بعالم الأسرار، واستقامة القلب صدق اليقين ومعرفة الجبار، فذكر اللسان الحمد والثناء، وذكر النفس الجهد والعناء، وذكر الروح الخوف والرجاء، وذكر القلب الصدق والصفاء، وذكر العقل التعظيم والحياء، وذكر المعرفة التسليم والرضاء، وذكر السر على رؤية إلقاء[1] .

١ -ذكر اللسان الحمد والثناء

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(٢)جاء الخطاب الإلهي للمؤمنين بأن يشغلوا أنفسهم بالذكر، وأولته الأحاديث الشريفة اهتماماً بالغاً فكان النبي صلى الله عليه وآله يوصي أصحابه دائما بذكر الله جل جلاله، وإليك مثلاً، قال الصحابي العظيم

(١) البحار: ج٩٠ ص١٥٤ ص٤٠٤.
(٢) الأحزاب الآية ٤١-٤٢.

أبو ذر الغفاري :دخلت إلى المسجد فأتيت إلى النبي ﷺ فقال لي: (عليك بتلاوة كتاب الله كثيراً فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض)[1] وكذلك الأئمة واحداً بعد واحد فكانت وصيتهم الأساسية لأهلهم وخاصة شيعتهم وعامتهم وتابعيهم، يروي ابن القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه فرض الله عز وجل الفرائض فمن أداهن فهو حدهن، و شهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج فمن حج فهو حده إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه ثم تلا هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا « فقال: لم يجعل الله عز وجل له حداً ينتهي إليه، قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم [و] ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لسانه لازقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله. وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر. والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين، وقد قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم، أرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن

(١) بحار الأنوار ج٧٤ص٧٢

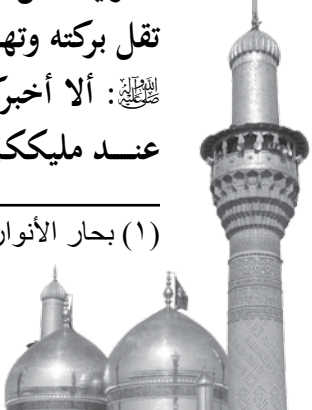

تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، فقال: ذكر الله عز وجل كثيراً، ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً. وقال رسول الله ﷺ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة. وقال: في قوله تعالى: (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ)[١] قال: (لا تستكثر ما عملت من خير لله)[٢]، وهذا الاهتمام الوارد في الكتاب والسنة جاء بسبب أن الذكر يجعل صاحبه معتاداً على الخير، وبالذكر ينفتح القلب لذكره الخاص وهو أن لا يجعل غير الله في قلبه جاء في الحديث القدسي(لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن)[٣]، يقول أحد العلماء(إن الذاكر يجب أن يكون مثل المعلم الذي يريد أن يعلّم الطفل الصغير الذي لم ينطق بعد الكلمات، حيث يكرر الكلمة حتى ينفتح لسان الطفل وينطق الكلمة، ثم نرى المعلم يداعب الطفل ويردد الكلمة بمثل ما سمعها الطفل فيزول تعب المعلم وكأن مددا يبلغه من الطفل، كذلك الذاكر يجب أن يعلّم قلبه الذكر إذا لم ينفتح لسانه–القلب–على الذكر)وفي الحديث الشريف فيما ناجى الله عيسى بن مريم عليه السلام (يا عيسى أحي ذكري بلسانك وليكن ودي في قلبك)[٤]، تشبيه الذكر بالميت وعملية إحياؤه تبدأ بالذكر اللساني، وهنا مسالة لابد أن نذكرها وهي، أن الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه قد يلقي في قلب الأنسان الذاكر شبهه مفادها أنه لا فائدة من الذكر اللساني إلا أن

(١) المدثر الآية ٦.
(٢) أصول الكافي ج٨ ص٤٩٨.
(٣) عوالي اللئالىء ج٤ص٧.
(٤) أصول الكافي ج٨ ص١٣٢.

يكون القلب حاضراً فعليه يتوجب عليك ترك الذكر اللساني، ولكن على المؤمن بالله ورسوله أن لا ينجر وراء هذا الإيهام الباطل ويقتنع به، فإن الذكر اللساني وإن كان أضعف مراتب الذكر إلا أنه ممدوح ومطلوب في الشرع المقدس من قرآن وسنة، وأيضا كما مر فإنه لا يخلو من خير لأنه يكون مانعاً من التكلم باللغو أولاً ويكون منبهاً للقلب ثانياً، مثلما نستمع إلى واعظ يوجه إلى الخير والصلاح فنتنبه ونسترشد بكلامه، والاستمرار بالذكر يكون إرغاما لأنف الشيطان بعدم الانجرار وراء وساوسه ثالثاً، وعلينا أن لا ننسى أن لكل عضو من أعضائنا ذكره الخاص، وإليك حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: (من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيرا)، ثم قال: (لا أعني سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ واللهُ أَكْبَر، وإن كان منه....إلى آخر الحديث)[1] فعلى من أراد التوجه إلى الله أن يلملم شتات نفسه ويبدأ بذكر الله. وفي كتاب (عيون الأخبار) عن رجاء بن أبي الضحاك قال : بعثني المأمون في إشخاص علي بن موسى الرضا عليه السلام من المدينة وأمرني أن آخذ به على طريق البصرة والأهواز وفارس ولا آخذ به على طريق قم، وأمرني أن أحفظه بنفسي بالليل والنهار حتى أقدم عليه، فكنت معه من المدينة إلى مرو فو الله ما رأيت رجلاً كان أتقى لله عز وجل منه ولا أكثر ذكراً لله تعالى في جميع أوقاته منه ولا أشد خوفا لله تعالى[2].

(١) أصول الكافي ج٢ص٨٠.
(٢) ج١ ص١٩٤.

٢-ذكر النفس الجهد والعناء

لما كانت النفس منشأ لصدور الأفعال والانفعالات (التأثير والتأثر)، –وهي لا تسمى نفساً إلا بهذا السبب– فإن أعظم النفوس وأشرفها أسرعها استجابة لله سبحانه وتعالى في الطاعة والانقياد والاجتهاد والصبر، وإن تفاوت درجات الناس جاء من هذا الأمر، ولا يكون الانقياد والطاعة في الأوامر والنواهي إلا بالمعرفة، ولا تكون المعرفة إلا بحسن العقل وكماله، فنرى أن الأنبياء والأولياء عليهم السلام أشد الناس استجابة لله جل وعلا ثم تكون مراتب العباد مختلفة بحسب هذا الاستعداد الموجود عندهم فكلما كان العقل كاملاً قويت النفس واستعدت وازدادت في تلقي المعارف المفاضة إليها من الباري عز وجل وزاد جهدها وعناءها لعلمها بأنها لا تستطيع أن تبلغ حد شكر النعمة المعطاة إليها من خالقها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان يبذله نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله في العبادة من صلاة فإنه صلوات الله عليه كان يقف للعبادة حتى تتورم قدماه فجعل يرفع رجلاً ويقف على الأخرى أو من تبليغ للرسالة الإلهية في قوله تعالى:(طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب نفسك ولكن ليكون مذكراً يتذكر مَنْ مِنْ شأنه أن يخشى ويؤمن بالله فتذكر بهذا القرآن الخاشعين من العباد، ويروى عن الزهري، قال دخلت مع علي بن الحسين عليه السلام على عبد الملك بن مروان قال فاستعظم عبد الملك ما رآى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليه السلام فقال

يا أبا محمد لقد بان عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعة من رسول الله ﷺ قريب النسب وكيد السبب وإنك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤته أحد مثلك ولا قبلك إلا من مضى من سلفك، وأقبل يثني عليه ويطريه، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام : كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين كان رسول الله ﷺ يقف في الصلاة حتى ترم (أي تنتفخ) قدماه ويظمأ في الصيام حتى يعصب (يبس، عصب الريق فاه إذا الصق به) فوه فقيل له: يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً، الحمد لله على ما أولى وأبلى، وله الحمد في الآخرة والأولى، والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقلتاي على صدري لن أقوم لله جل جلاله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ حد نعمة منها على جميع حمد الحامدين، لا والله أو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ولا سر ولا علانية، ولولا أن لأهلي علي حقاً ولسائر الناس من خاصهم وعامهم علي حقوقاً، لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين، وبكى وبكى عبد الملك[1]

(١) مستدرك الوسائل ج١ص١٢٦.

فكان هذا دأب الأنبياء والأولياء عليهم السلام في العلاقة مع الله سبحانه وتعالى ومع الناس في تذكيرهم بالله جل وعلا ويجب علينا التأسي بهم على ما فرض الله علينا، (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)[١] وأن لا نعطي النفس مبتغاها فإنها كلما أعطيتها طلبت أكثر كالنار كلما تلقي فيها حطباً تزداد سعيراً وتطلب لبقائها حطباً أخراً .

٣-ذكر الروح الخوف والرجاء

قال الإمام الصادق عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يخاف الله تبارك وتعالى خوفاً كأنه مشرف على النار، ويرجوه رجاءً كأنه من أهل الجنة، ثم قال: إن الله عز وجل عند ظن عبده إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً)[٢]،في هذا الحديث المبارك دلالة على أنه ينبغي المساواة بين الخوف والرجاء وأن لا يميل إلى طرف ويترك الطرف الآخر بل يجعلهما متساويين ككفتي ميزان، فإن هنالك صنف من الناس يفكر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي من أنواع العذاب الإلهي فيزداد ويعظم في أنفسهم الخوف وترتعد فرائصهم لذلك، وصنف يفكر فيما وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة فيطمع ويتكل على عطاء الله ومنّهِ وينسى العمل المقرب لله، ولكن على المؤمن أن يجمع الخوف والرجاء، وذلك لأنه يمكن أن يكون مقصراً في أعماله القلبية والبدنية فيكون

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.
(٢) أصول الكافي ج٨ ص٣٠٢ .

من أهل النار، وأن يرجو الله الرحمن المنعم الذي أنعم عليه في هذه الدنيا بلا استحقاق للعبد على الله، فمن نظر إلى نفسه وأعماله رأى التقصير الذي يؤدي به إلى النار، ومن نظر إلى ربه رأى سعة كرمه ورحمته واستغنائه عن تعذيبه، وهذا المعنى أشار إليه الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: (إلهي كيف أدعوك وأنا أنا، وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت. إلهي إذا لم أسألك فتعطيني، فمن ذا الذي أسأله فيعطيني. إلهي إذا لم أدعك فتستجيب لي، فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي. إلهي إذا لم أتضرع إليك فترحمني، فمن ذا الذي أتضرع إليه فيرحمني. إلهي فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته، أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن تنجيني مما أنا فيه، وتفرج عني فرجاً عاجلاً غير آجل، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين)[1]، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم – أعمارهم – في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومَنّي يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت.)[2] وقال عليه السلام:

(١) الصحيفة السجادية ص٣٩٨.
(٢) أصول الكافي ج٢ ص٧٢.

وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال – وهو على منبره–: والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم، بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)[1] وعلى هذا يتوجب علينا أن لا نعتمد على أعمالنا لأن التقصير هو ثوبها وقياسها وأن نحسن الظن به لأنه أصل الكرم وفيضه فتبقى الروح بين حالين لإن الروح إذا ذكرت خافت وإذا خافت هربت من المعاصي وإن هربت نجت من العقاب، وأيضا إن رجاء الروح في يقينها بفضل الله سبحانه وتعالى فإذا تمكنت من رؤية الفضل رجت وإذا وجدت حلاوة الرجاء طلبت من ربها فقط واستغنت عن غيره.

٤-ذكر القلب الصدق والصفاء

الأداة الرابعة لذكر الله سبحانه وتعالى والوسيلة إليه هو القلب الصادق، والصدق الذي هو من الصفات النفسانية الممدوحة في القرآن والسنة وعند العقلاء على اختلاف معتقداتهم، فإن الصدق خلق يصاحب ويثبت جميع الأخلاق الحسنة من العفة والشجاعة

(١) أصول الكافي ج٢ ص٧٣.

والعدالة والسخاء وغيرها لأن الإنسان ليس إلا الاعتقاد والعمل والقول فإذا اجتمعت وتطابقت هذه الأمور الثلاثة فلا يفعل إلا ما يقول ولا يقول إلا ما يعتقد، كمل إيمانه وتقواه، وقد أوضح القرآن الكريم مفهوم الصدق في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)[1] فإن هذه الآية تبين معنى الصدق بأنه المجموع من الإيمان والعمل الذي لا يشوبه أيٌّ من التردد أو المخالفة في الأقوال والأفعال، وهو المُعبّر عنه بالصفاء، فالمؤمن من اجتمعت فيه صفة الإيمان بالله ورسوله وعدم الشك والجهاد بالمال والنفس، وإن المؤمن تجب عليه الاستقامة والثبات في القول والفعل وإن واجه أعظم المصاعب والمشاكل في حياته، وسلامة القلب وصدقه في الامتثال للشريعة السماوية هي من أهم مقومات السعادة للبشرية، فنحن إذا بحثنا في المشاكل العامة التي تستوعب حياة الناس وتبطل أغلب مساعيهم لنيل الراحة والسعادة وتهدد الحياة الإنسانية بالانحراف والسقوط نجد إن أقوى عامل فيها عدم الإيمان والتقوى والانغماس في الشهوات والاسترسال في المنافع المادية بكل طريقة ولذلك نرى أن التشريعات الوضعية كلما وضعت قانونا تحاول فيه ضبط وترشيد السلوك والخلق الإنساني يخرق من طريق آخر لاعتقاد البعض أن الصفات النفسية الفاضلة التي تسمى بالفضائل الأخلاقية هي من بقايا الأساطير والخرافات ولا تلائم حياة الإنسان المتمدن المتحضر اليوم فالعفة والسخاء والحياء والعدالة وغيرها من الصفات إنما هي

(١) الحجرات الآية ١٥.

تقييدات لطبيعة النفس من حيث الاشتهاء والرغبة والسعي الإنساني لجمع الأموال ومنع الإنسان بمطالبته بحقوقه وإظهار ما في نفسه، فهذا التغافل عن هذه الفضائل التي هي لبنة بناء المجتمع الإنساني إنما هو الهدم بعينه ولا يمكن بناء المجتمع بغيرها، وبفقدها يتحول المجتمع إلى ساحة حرب ونزاع يسيطر فيه ويتأكد فيه حكم الأكثر خداعاً ومراوغةً وكذباً، فعلى من أراد أن يصفو قلبه لله سبحانه أن يشغله بذكر الله، ولا يصغي إلى أقوال أهل الدنيا ورغباتهم، وأن يهجر كل من يقف حائلاً بينه وبين ربه أو بينه وبين الذين أمر الله بطاعتهم وأتباعهم في كتابه العزيز، قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[١] فهذا الأمر بحبس النفس صدقاً وواقعاً مع الدعاة إلى الله ابتغاء رحمته ورضاه وإنعامه حتى تشمله وتغمره هذه الألطاف فيتلبس بها فيكون مرحوماً ومرضياً عنه ومنعماً عليه، وعدم التجاوز عنهم من أجل زخارف الدنيا، وعدم إطاعة الغافلين عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ومعاندي الحق والهدى المتجاوزين حدود الله، قال رسول اللّه ﷺ: (إنّ الصدق برّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وإنّ العبد ليتحرّى الصدق حتى يكتب عند اللّه صدّيقاً، وإنّ الكذب فجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإنّ العبد ليتحرّى الكذب حتى يكتب كذاباً)[٢]

(١) الكف الآية ٢٨.
(٢) الحديث النبوي بين الرواية والدراية ص١١٨.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: الصدق يهدي إلى البر، والبر يدعو إلى الجنة، وما يزال أحدكم يصدق حتى لا يبقى في قلبه موضع أبرة من كذب حتى يكون عند الله صادقا)[١]

٥-ذكر العقل التعظيم والحياء

إن حقيقة ذكر العقل هي مراقبة العبد لربه، والاستحياء منه لأن: (الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه)[٢] فلابد للذاكر أن يتوجه إلى ربه ويتخلص من هوى النفس، فإن قبول الأعمال وصلاحها إنما هو بالعقل الكامل المتأمّل في عظمة الله وقدرته على جميع الموجودات، ولا يمكن أن يكون العمل تاماً زاكياً نامياً عند الله وعقل الذاكر وقلبه مشغولاً بغيره، فالقائم بين يدي ربه وهو ملتفت إلى مال أو ولد أو دنيا يصيبها يمتنع أن يكون قلبه مشغولا بذكر ربه، لأن مشرب العقل والقلب ضيق كلما دخل فيه شيء يخرج منه ضده، ولو لم يخرجه بقي شيء مختلط من الحق والباطل، كما أن قليلا من الماء إذا خالطه دم كثير لا يسمى هذا المختلط ماء.

إن النظر في جلال قدرة الله وكمالها وشدتها على جميع الموجودات بإيجادها وإعدامها والتفكر في قهره وإعطائه ومنعه يوجب احتقار

---

(١) مستدرك الوسائل ج٨ ص٤٥٥.
(٢) عن الباقر أو الصادق عليهما السلام/ مستدرك الوسائل/ ج٨: ص٤٦١.

الإنسان نفسه ووجوده، بل لا يرى لنفسه وجوداً وقدرة وكمالاً وإنما يرى الحول والقوة بيد الله لا بيد غيره، والغافل الأحمق هو الذي يرى لنفسه قدرة وكمالاً ولم يرقب الباري عز وجل، فيعتقد أنه الأوحدي في زمانه والفريد في أوانه، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظّم)[١] فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا له ويغضوا أطرافهم ويخجلوا منه جل وعلا، يقول الإمام عليه السلام في وصف الشيعة- وننقل محل الشاهد-: (أو يقول قد خولطوا فقد خالط القوم أمر عظيم إذا فكروا في عظمة الله و شدة سلطانه مع ما يخالطهم من ذكر الموت و أهوال القيامة [أ] فزع ذلك قلوبهم، جاشت حلومهم وذهلت قلوبهم [عقولهم] و إذا استفاقوا بادروا إلى الله بالأعمال الزكية، لا يرضون لله من أعمالهم بالقليل ولا يستكثرون له الجزيل، فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، إن زكي أحدهم خاف مما يقولون وقال أنا أعلم بنفسي من غيري و ربي أعلم بنفسي مني اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون فإنك علام الغيوب وستار العيوب)[٢] ويقول عليه السلام فيهم: (فإذا ذكروا عظمة الله عز وجل انكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم، أُولئك أصحابي وشيعتي حقاً، الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)[٣] ويؤدب مولانا الصادق عليه السلام أحد أصحابه في كيفية القيام في الصلاة، فيقول له: (إذا استقبلت القبلة

(١) ميزان الحكمة ج٣ ص١٨٨٨.
(٢) صفات الشيعة ص : ٢٢.
(٣) أعلام الدين في صفات المؤمنين ص١٣٥.

فآيس من الدنيا و ما فيها و الخلق و ما هم فيه و فرّغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرك عظمة الله عز وجل واذكر وقوفك بين يديه قال الله تعالى: (هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ)، وقِفْ على قدم الخوف والرجاء فإذا كبّرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره فقال يا كذاب أتخدعني وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي، واعلم أنه تعالى غير محتاج إلى خدمتك وهو غني عنك وعن عبادتك ودعائك وإنما دعاك بفضله ليرحمك ويبعدك عن عقوبته وينشر عليك من بركات حنانيته ويهديك إلى سبيل رضاه ويفتح عليك باب مغفرته فلو خلق الله عز وجل على ضِعْف ما خلق من العوالم أضعافا مضاعفة على سرمد الأبد لكان عند الله سواء أكفروا به بأجمعهم أو وحدوه فليس له من عبادة الخلق إلا إظهار الكرم والقدرة فاجعل الحياء رداءً والعجز إزاراً وادخل تحت سرير سلطان الله تعالى تغتنم فوائد ربوبيته مستعينا به مستغيثا إليه)[1]

ولكن البعض تذرّع بحجة أن الإنسان مدني بطبعه يميل إلى بني نوعه ولا يستطيع تركهم والاعتزال عنهم والتخلف عن مسايرة ركبهم ومتى ما أنفرد عن الناس أحس بالغربة والوحشة وعجز عن تحقيق

(١) مصباح الشريعة ص : ٨٩.

أدنى متطلبات المعيشة فضلا عن تحقيق آماله، فهو فرع من أسرة والأسرة فرع من المجتمع فلا يستطيع فك هذا الترابط الاجتماعي، وعليه فإن هذا الحال يؤثر في توجه العقل نحو ربه العظيم؟!

وهذا الاعتذار ضعيف، فإن الأنبياء والأوصياء كلهم كانوا يتعايشون مع أسرهم ومجتمعاتهم وهم وعلى كثرة مسؤلياتهم التبليغية والإرشادية لم ينقطعوا عن الله سبحانه وتعالى، فهم مراقبون لعظمة الله وسلطانه والحياء يعلوهم منه جل وعلا، وتعظيم الله ومراقبته والحياء منه لا يتقاطع مع ما يتذرّع به أولئك، ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس، والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك، وحسن بشرك، (ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك)[1] أي يكون عندك اعتقادان، اعتقادك بأنك محتاج إلى المعاشرة مع الناس، واعتقادك أنك مستغن عنهم وغير محتاج إلى أحد من الخلق لأن العقل يحكم أن كل شيء متعلق بجلال الله وعظمته وشدة احتياج كل شيء إليه والنتيجة من قوله عليه السلام إن ترك الناس ومقاطعتهم مذموم والاعتماد عليهم والتذلل إليهم مذموم فيبقى الوسط هو الممدوح.

(١) أصول الكافي ج٢ ص١٤٨.

٦ - ذكر المعرفة التسليم والرضا

لما كان الله سبحانه هو المبدع للإنسان و هو الموجد لكل جزء من أجزاء وجوده، و كل قوة من قواه الباطنة والظاهرة كان هو الذي يحيط به و بكل واحد من أجزاء وجوده و توابعه (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[١] ويملك كل جزء منها بحقيقة معنى المالكية فهو يتصرف فيه كيف يشاء إلى أي وقت يشاء،يعدمه، يبقيه، فهو على كل شيء قدير و يعطي الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الإنسان و بين كل جزء من أجزاء وجوده، بينه و بين قلبه، بينه وبين سمعه، بينه وبين بصره، بينه وبين بدنه، بينه وبين إعطائه، بينه وبين منعه قال أمير المؤمنين عليه السلام: (عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم)[٢]

ومثل الإنسان في ذلك جميع الموجودات فما من شيء في الكون وما من موجود وما فيه من قوى وآثار وأفعال إلا والله سبحانه هو المالك بحقيقة معنى الكلمة لذاته وما يتبعها من آثار، وهو المعطي لها وجودها، وكلما يصدر منها يكون بحوله وقوته، فهو الحائل المتوسط بينها وبين ذاتها وبينها وبين توابع ذاتها من قوى وآثار وأفعال، فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان وبين قلبه،

---

(١) المجادلة الآية ٦.
(٢) ميزان الحكمة ج١ ص٧٩٥.

وكل مـا يملكه الإنسـان و يرتبط و يتصل به بـأي نوع من الإتصال والإرتباط فالله أقرب إليه منها كما قال تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيدِ)[١]، وقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَـرُونَ)[٢] فهو تعالى لكونه مالكاً لكل شـيء، ومن جملتها الإنسـان ملكاً حقيقياً، لا مالك حقيقةً سواه،فهو أقرب إلى الإنسان حتى من نفسـه و قواها التي يملكها، لأنه سـبحانه هو الذي يُملِّكهُ إياها، فالله حائل متوسـط بين الإنسـان و بين قواه، وفي نفس هذه الآية المباركة يأمرنا الله جل جلاله أن نمتثل للأوامر الصادرة من النبي الأكرم ﷺ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ)[٣]باعتباره الموصل والمـؤدي عن الله تبارك وتعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إلى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِـرَاجًا مُنِيرًا)[٤]، فإن ثبتت هذه المعرفة عند الإنسان ينقطع عندها كل عذر في عدم اسـتجابته لله والرسـول إذا دعاه لما يحييه، و هو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقة فإن الله سبحانه لما كان أقرب إليه من كل شـيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شـيء، فهو تعالى وحده لا شـريك له، أعرف إليه من قلبه الذي هو وسـيلة إدراكه و سـبب أصل معرفته و علمه، فهـو يعرف الله إلهاً واحداً لا شريك له قبل معرفته قلبه و كل ما يعرفه بقلبه، فمهما شك في شيء

(١) ق الآية ١٦.
(٢) الأنفال الآية ٢٤.
(٣) الأنفال الآية ٢٤.
(٤) الأحزاب الآية ٤٥-٤٦.

أو ارتاب في أمر فلن يشك في أن إلهه واحد الذي هو رب كل شيء و لن يضل في تشـــخيص هذه الحقيقة، فـــإذا دعاه داعي الحق إلى كلمة الحق ودين التوحيد الذي يحييه لو اســـتجاب له، كان عليه أن يستجيب إلى داعي الله فإنه لا عذر له في ترك الاستجابة معللاً ذلك بأنه لم يعرف أحقية ما دعي إليه، أو اختلط عليه، أو أعيته المذاهب الفكرية والرؤى والفلسفات في الإقبال على الحق الواضح الصريح، فإن الله سبحانه هو الحق الصريح الذي لا يحجبه حاجب، ولا يستره ســـاتر، إذ كل حجاب مفروض فالله ســـبحانه أقرب منه إلى الإنسان على ما مر بيانه، و كل ما يختلج في القلب من شبهة أو وسوسة فالله ســـبحانه متوسط متخلل بينها وبين الإنســـان فلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله والشـــك في توحيده، فعلى الإنسان إذا دعاه داعي الحق من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام إلى ما يحييه من الحق أن يستجيب لهذه الدعوة بقلبه كما يستجيب لها بلسانه، وأن يعمل بما يؤمر ولا يُدخِل في قلبه أي ريب أو شـــك بأن هذه الوظائـــف فيها الخير والصلاح لـــه، وهذا هو التســـليم والرضا، قال أبو عبـــد الله عليه السلام: (رأس طاعة الله الرضـــا بما صنع الله فيما أحب العبد و فيما كره، و لم يصنع الله (تعالى)بعبد شـــيئاً إلا و هو خير له)[1]، ولا يُضمِر في قلبه ما يخالف الذي لبّاه بلسانه فيكون منافقاً

(إن تجلي ضيـــاء المعرفة في الفؤاد يهيج ريح المحبة وإذا هاجت

(١) كتاب الأمالي ص ٢٢٠.

ريح المحبة استأنس المحب في ظلال المحبوب وآثر المحبوب على كل ما سواه وامتثل لأوامره واجتنب نواهيه واختارهما على كل ما سواه وإذا وصل إلى رتبة التطبيق التام وصل إلى روح المناجاة الحقيقية)[١]

٧-ذكر السر الرؤية واللقاء

إنّ الهدف الأعلى للإنسان هو لقاء الله، وإنّ سرّ لقائه عشقه ومحبّته، وإنّ مفتاح هذا السرّ ذكره سبحانه وتعالى، إنّ ذكر الله حياة للقلب، وغذاء للروح، وهو الباعث على حصول حبّ الحقّ جلّ وعلا وعشقه، جاء في بعض الكتب المنزلة من الله على الأنبياء عليهم السلام: (وإن من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[٢]، وإنّ حب الله يقطع المحب عن غيره من الموجودات، وهذا هو ما يسمّى بالانقطاع عند أهل المعرفة، وفي المرتبة الأولى من هذا الانقطاع تموت النفس الأمّارة بالسوء، وتبدأ الحياة العقليّة للإنسان، وفي أعلى درجاتها تستضيء بصيرة الإنسان بنور لقاء الله، ومما لا شكّ فيه أنّ الرؤية الحسّية(بالعين) لله غير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك لأنّه يلزم منه الجسمية والمادية لله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ويلزم أيضاً تغيّره وتحوّله وفساده، وأنّه يحتاج إلى الزمان والمكان، إلى

(١) مقتبس من كلام للإمام الصادق عليه السلام في كتاب مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام.
(٢) مستدرك الوسائل ج٥ ص٢٩٨.

آخر القائمة الطويلة التي يحتاجها الموجود الممكن، وهو مبرّأ عن كلّ ذلك لأنّه واجب الوجود، إلاّ أنّ الله سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية والقلبية، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال : (لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مبائن، متكلم لا برويّة، ومريد بلا همّة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتَجُبُّ القلوب من مخافته)[1]، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الرؤية الباطنية على نحوين: رؤية عقلية تحصل عن طريق الاستدلال والبرهان، وهي كثيرة وقد أولى علماء الكلام المسلمين الاهتمام به واستدلوا بأدلة عديدة.

وأخرى رؤية قلبية، وهي إدراك فوق إدراك العقل، ورؤية وراء رؤيته بالعقل، وهذا الإدراك لا يوصف بمقام الاستدلال والبرهان العقلي، بل هو المشاهدة، مشاهدة قلبية باطنية، وهذا المقام حصل لأولياء الله من الأنبياء والأوصياء على درجاتهم المتفاوتة، ويمكن أن يحصل للصالحين من عباده، ويذكر بعض العلماء أن هذه الرؤية القلبية متفاوتة حسب تفاوت رتب الاستعداد الموجود، وبالطبع فإنّ إدراك حقيقة هذه الرؤية لمن لم يبلغ ذلك المقام في غاية الصعوبة، ومسألة الشهود الباطني كما أسلفنا القول هي نوع من الإدراك أو الرؤية

(١) بحار الأنوار ج٤ ص٥٣.

التي لا تشـــبه الإدراكات العقلية ولا الإدراكات الحسيّة التي يدركها الإنســـان بواســـطة الحواس الظاهرة، ويمكن محاولة تقريبه من بعض الجهات بعلم الإنســـان بوجود نفســـه وأفـــكاره وتصوّراته، فإنا نجد أنفسنا موجودين وندرك أفكارنا ونعرف إرادتنا وميولنا النفسيّة، وهذا الادراك لا يحصل عندنا عن طريق الاستدلال ولا عن طريق المشاهدة الحســـية بالحواس الخمسة بل هي نوع من الشهود الباطني لنا، ومن خلال هذا الطريق وقفنا على وجودنا وروحيتنا وننســـب الأشياء إلينا وفي بعضها تكون وجود الأشياء مع ذواتنا واحد مثل الخوف والحب والألم لكن العقل هو الذي يفكك هذه الأشـــياء عن ذواتنا، ولذلك فإنّ العلم الحاصل عن الشـــهود الباطنـــي لا يقع فيه الخطأ، لأنه لم يحصل عن طريق الاستدلال الذي قد يقع الخطأ في مقدماته والذي يســـمى عند المنطقيين بالعلم الحصولي، ولا عن طريق الحس الذي قد يقع الخطأ فيه بواسطة الحواس، فإن الراكب في مركبة وهي تسير قـــد يتوهم أن الموجـــودات الخارجية هي التي تســـير وهو والمركبة متوقفين.

(ذكـــر الرؤية واللقاء ببذل الوجود لوجدان المعبود، فاذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء وهو معنى الحديث القدسي وان من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وهو الذكر الحقيقي والغاية الأخيرة لما في الخطاب)[1].

(١) اللوامع الإلهية ج١ ص١٥٣ .

٨- ذكر الجوارح

وهنـــاك ذكر آخر لم يرد في الحديث المبارك ويذكره بعض العلماء وهو ذكر الجوارح، يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى حق الجوارح من اللســـان والســـمع والبصر واليد والرجل والبطن والفرج فإن لكل منها حق، وحقها ألا تستخدمها بخلاف ما أمرك الله به وما نهاك عنه، فمعنى ذكر الجوارح ببساطة أن تدخلها في طاعته ولا تسلك بها إلى معصيتـــه، فإن الجـــوارح مأمورة وتابعة لإرادتنا فنســـتطيع أن نجعلها عابدة مطيعة، فيظهر على جوارحنا إيماننا القلبي ويتجلى، وبواســـطة عملها يُستكشَـــف عمق وصلابة الإيمان واليقين في الدنيا والآخرة، أو عاصيـــة فيظهر عليها آثار أعمالنا القلبية من ضعف ووهن، يقول صاحـــب الأمثل: (إنّ أعضاء البدن الإنســـاني تحتفظ بآثار الأعمال التـــي قامـــت بها في الدنيا، إذ أنّ أي عمل فـــي هذه الدنيا لا يفنى، بل إنّ آثاره ســـتبقى على كلّ عضو من البدن، وفي الفضاء المحيط بهـــا، وفي ذلك اليـــوم الذي هو يوم الظهور والتجلّي، ســـتظهر هذه الآثار على اليد والقدم وســـائر الأعضاء، وظهور تلك الآثار هو منزلة الشهادة. وهذا تماماً كما يرد في لغتنا المعاصرة حينما نقول: «عينك تشهد على سهرك»، أو «الجدران تبكي صاحب الدار».

وعلـــى كلّ حال، فإنّ من المســـلّمات شـــهادة الأعضـــاء في يوم القيامـــة)[1]– ولكن أين آثـــار الأعمال الصالحة مـــن آثار الأعمال

(١) الأمثل / الجزء الرابع عشر / صفحة -٢٢٣.

الطالحة، فإن الجوارح تشهد على الفاجر الذي عمل الموبقات والذنوب، يقول الإمام الباقر عليه السلام: ليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عزّ وجلّ: (فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا)[1]

الخاتمة

قال الثعلبي في تفسير قوله تعالى: (فاذكروني أذكركم) أذكروني بالدعاء اذكركم بالعطاء، اذكروني بالسؤال اذكركم بالنوال، اذكروني بلا غفلة اذكركم بلا مهلة، اذكروني بالندم اذكركم بالكرم، اذكروني بالمعذرة اذكركم بالمغفرة، اذكروني بالإرادة اذكركم بالإفادة، اذكروني بالتنصل اذكركم بالتفضل اذكروني بالإخلاص اذكركم بالخلاص، اذكروني بالقلوب اذكركم بكشف الكروب، اذكروني بلا نسيان اذكركم بالأمان، اذكروني بالافتقار اذكركم بالاقتدار، اذكروني بالإعدام والاستغفار اذكركم بالرحمة والاغتفار، اذكروني بالإيمان أذكركم بالجنان، اذكروني بالإسلام اذكركم بالإكرام، اذكروني بالقلب اذكركم برفع التعجُّب، اذكروني ذكرا فانيا أذكركم ذكرا باقيا، أذكروني بالابتهال أذكركم بالإفضال، أذكروني بالظل أذكركم بعفو

(١) البحار ج٦٦ ص٩٠ .

الزلــل، اذكروني بالاعتراف اذكركم بمحو الاقتراف، اذكروني بصفاء السر اذكركم بخالص البر، اذكروني بالصدق اذكركم بالرفق، اذكروني بالصفو اذكركم بالعفو، اذكروني بالتعظيم اذكركم بالتكريم، اذكروني بالتكبير اذكركم بالتطهير، اذكروني بالتمجيد اذكركم بالمزيد، اذكروني بالمناجاة اذكركم بالنجاة، اذكروني بترك الجفاء اذكركم بحفظ الوفاء، اذكروني بترك الخطأ اذكركم بحفظ الوفاء، اذكروني بالجهد بالخِلقَة اذكركــم بإتمام النعمة، اذكروني مــن حيث أنتم اذكركم من حيث أنا ولذكر الله أكبر[١]

قال الآصفي : رأيــت أعرابياً واقفاً يوم عرفة بالموقف وهو يقول : ضجت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدنيا[٢].

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

(١) تفسير الثعلبي - الثعلبي - ج ٢ - ص ١٩ - ٢١
(٢) تفسير الثعلبي/ ج٢: ص٢١.

الفهرس

المقدمة ٣

أدوات الذكر ٤

ذكر اللسان الحمد والثناء ٤

ذكر النفس الجهد والعناء ٨

ذكر الروح الخوف والرجاء ١٠

ذكر القلب الصدق والصفاء ١٢

ذكر العقل التعظيم والحياء ١٥

ذكر المعرفة التسليم والرضا ١٩

ذكر السر الرؤية واللقاء ٢٢

ذكر الجوارح ٢٥

الخاتمة ٢٦

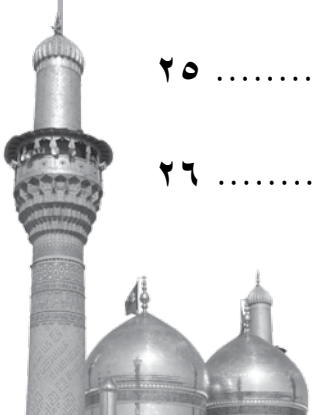

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
www.aljawadain.org زورونا

الشؤون الفكرية والثقافية
fikriya@aljawadain.org راسلونا